والسياسة والمذاهب الاقتصادية ، مما فتح الباب لمهاجمة مؤسسات ومعتقدات كانت تبدو راسخة مخلدة · وقد اخذت ثورة العصر هذه اشكالا مختلفة تماما : رومنسية وعقلانية · اما العقلانية فتبدأ بالفلاسفة الفرنسيين الى الفلاسفة الراديكاليين الانجليز ، حتى تكتسب عمقا جديداعند ماركس ، اما الرومنسية فتمتد من بايرون الى شوبنهور ، فنيتشه حتى موسوليني وهتلر (٥) ·

رد الفعل ضد عصر العقل

كادت ان تكون السيادة للعقل مطلقة ، خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، فقد كان العقل هو المحرك للفكر ، وللثوريين ، كما كان الايمان بالعلم وبالمستقبل ، وبمثل الديموقراطية والحرية والمساواة والسلام · كانت الرأسمالية تنمو ، والبورجوازية تصعد ، وآفاق المستقبل تنفتح امامها بلا حدود · ويتجمع وراء رايتها كل الشعب · ولكنها بعد ان قادت عدة ثورات مظفرة ، وأمسكت بزمام السلطة في العديد من البلدان ، او شاركت فيها بنصيب وافر ، جلبت معها ايضا الشقاء ، بل والمزيد من الفقر والافقار للطبقة العاملة والفلاحين ، كما سحقت ازمات الرأسمالية المبكرة تحت أقدامها اقساما عريضة من الحرفيين والتجار والبورجوازية الصغيرة · فكان الشك ، خاصة تحت تأثير هيوم · وبدأ نقد العقل · وفي سنة ١٧٨١ قدم كانت مؤلفة الاشهر « نقد العقل الخالص » وقد حاول فيه ، بتحليله لطبيعة المعرفة ، وقدرة العقل البشري ، التدليل على ان العلم وطرق الميكانيكا والفيزياء الرياضيين تصلح لوصف العالم بينما هي تعجز تماما عن الكشف عن حقيقة العالم · فالعلم يقدم لنا وصفا صادقا للحوادث الظاهرة اي الاشياء كما تبدو في الظاهر ، وكما يسمح لنا تركيب عقولنا واسلوب عملها اختبارها ولكن العلم ليس في وسعه اثبات شيء عن العالم الحقيقي او العالم في ذاته ، وكما يبدو لعقل كامل ، ومنزه عن كافة النقائص كعقل الآله (٦) ·

ومعنى ذلك ان العالم الحقيقي اكثر اتساعا مما تصفه العلوم بطريقتها العلمية ، وعلومنا لا تشمل ، ولا تستطيع ان تشمل ، كل شيء ضمن افقها ونحن نملك خبرات اخرى ، خبرات الضمير والجمال والدافع الديني · وهي خبرات ، برغم انها ليست خبرات علمية او عقلية بالمعنى الصحيح ، وبرغم استحالة ادخالها في اطار الفيزياء الميكانيكية ، الا انها خبرات قوية وهامة لا يمكن اهمالها او اعتبارها مجرد تصورات وهمية (٧) ، كما انها تظل مستعصية على الفهم ، الى ان نفترض بان العالم في الحقيقة ، هو شيء مختلف عما يستطيع العلم البرهنة على وجوده · ولما كنا لا نستطيع قط ان نعرف علميا حقيقة الكون في ذاته ، وجوهره الحقيقي ، ولا يمكن ان نتخطى في معرفتنا العقلية والعلمية الظواهر ، فلا مندوحة لنا من ان نعتمد على